الخطاب السياسي وتشكيل قناعات الجمهور

أ. د. رانيا فوزي عيسى

أستاذ اللّغويات - كليّة الآداب - جامعة الإسكندريّة

يُعدّ تحليل الخطاب السياسي أحدّ أهم مُنجزات اللّسانيات في العصر الحديث، والخطاب السياسي قديم قِدَم الحضارة الإنسانيّة، فالخطاب السياسي خطاب مُوجّه عن قصد إلى مُتلقٍ مقصود، بقصد التأثير فيه وإقناعه بمضمون ما جاء في هذا الخطاب من رسائل مُباشرة ورسائل خفيّة، فالخطاب السياسي يعمد إلى استثارة الرموز في عقول المخاطبين ونفوسهم كي يتمكن من تحقيق أهداف منتجه.

ويتعمّد منتج الخطاب السياسي من خلال التشكيلات اللغوية إيصال مقاصده ونواياه عبر رسائل معينة إلى المتلقين فيقوم بتشكيل بنية لغوية تكون الوعاء الذي يحمل أيديولوجيته وعقليته وثقافته، بل إنّه يصل في بعض الأحيان إلى حمل بعض الجوانب النفسيّة لمنتجه. والخطاب السياسي لذلك يكون إنتاجية مقصودة من مرسل معين إلى متلقٍ معين، المقصد الأول له تحقيق غاياته السياسية والأيديولوجيّة.

ولما كان الخطاب -أيًّا كان نوعه- يعتمد على مُنتج ورسالة ومستقبل، فقد احتاج منتج الخطاب السياسي إلى فهم طبيعة المتلقين وإنتاج خطابات تسعى إلى إقناعهم بما يريده الخطاب بأقل جهد ممكن. فالخطاب السياسي ينبغي أن يقدم إلى المتلقي بغض النظر عن خلفيته الثقافية والمعرفية، فهو يخاطب جمهور المتلقين الذي يتنوع بتنوع الطبقات والثقافات والتعليم، فهو يهدف إلى إيصال رسالة مخصوصة تأثيرية أو تحفيزية أو غير ذلك كي يوحّد الصفّ أو يحقق غايته التي يطمح إلى تحقيقها من خلال إرضاء المتلقي- حتى وإن كان إرضاءً ظاهريًّا- فبه تتشكل قناعات المتلقين ويلتف الجمهور حول منتج هذا الخطاب بتأثير لغويّ صرف، فاللغة هنا هي المحرك الرئيس والعامل المؤثر في تشكيل قناعات المتلقين. من هنا يجب البحث عن الوسائل اللغوية التي يمكن لمنتج الخطاب السياسي من خلالها توصيل أيديولوجياته إلى المتلقين وإقناعهم بها.

ويعتمد الخطاب السياسي وفقًا لفان دايك (Van Dijk) على كيفية استغلال القوى الاجتماعية Social، وعلاقات السيطرة Dominance، وعدم المساواة Inequality، وكيفية إعادة إنتاج هذه القوى مرة أخرى-عن طريق النص Text أو الكلام Talk في سياقاتها الاجتماعية والسياسية Social & Political Context، وهذا ما يقوم به منتج الخطاب السياسي؛ حيث يسعى إلى فرض سلطته على المتلقين من خلال اللغة.

إنّ اللغة هي المادة الرئيسة التي يتكون منها الخطاب السياسي فهو «يتشكل من أبنية لغوية، وهو الأمر الذي يقتضي من أية مقاربة علمية له، أن يتأسس على اللغة باعتبارها أهم متغير مناسب لطبيعته».[١]

مفهوم الخطاب السياسي

تتعدد التعريفات التي تتناول الخطاب السياسي، فنجد منها ما يتصل ببنية الخطاب النحوية والدلالية، ومنها ما يربط الخطاب السياسي بالبنى الاجتماعية والنفسية والتاريخية وغير ذلك من التعريفات، ويرى كل من «بول شيلتون» Paul Chilton و«كريستينا شافنير» Christina Schaffner أن الخطاب السياسي «شكل معقد من أشكال النشاط الإنساني القائم على إدراك أن السياسة لا يمكن تتبعها دون اللغة»[٢].

يربط شيلتون وشافنير بين الجوانب المعرفية والجوانب اللغوية للخطاب السياسي إذ لا يمكن فصل الخطاب السياسي عن عالمه المعرفي. فالخطاب السياسي ضمن هذه المقاربة يعتمد على النشاط الإنساني العام، وهو ما يعني تضمن الخطاب السياسي مجموعة من العوامل الاجتماعية والتاريخية والدينية والثقافية والنفسية، وكل هذه العوامل لا يمكن تتبع آثارها في أي خطاب سياسي دون النظر إلى اللغة التي هي أساس هذا النشاط الإنساني المعقد، وهو ما يشتمل عليه الجانب التضميني للخطاب السياسي، فالخطاب السياسي -تبعًا للمنظور السابق- يعتمد على لغة موحية وربما كانت غامضة وفضفاضة تعتمد على التضمينات والإحالات، وهو الأمر الذي يجعل هذا النمط الخطابي خاصًّا ومختلفًا عن بقية الأنماط الخطابية. والخطاب السياسي «وحدة فوق جُملية Supersantial Unite وتوسيع للبنى النحوية والمنطقية Syntactic & Logical للجملة كما يمتاز بالديناميكية اللغوية، وهو ذو فضاء دلالي ينتج في أي من المعاني الاجتماعية»[٣].

يركز التعريف السابق على عدة جوانب يهتم بها الخطاب السياسي: أولها: العلاقة الوثيقة بين الامتداد الجملي للخطاب وبين البنى النحوية والدلالية والاجتماعية، فالخطاب السياسي خلاصة العناصر السابقة.

> **لا يمكن فصل الخطاب السياسي عن عالمه المعرفي، فالخطاب السياسي ضمن هذه المقاربة يعتمد على النشاط الإنساني العام، وهو ما يعني تضمن الخطاب السياسي مجموعة من العوامل الاجتماعية والتاريخية والدينية والثقافية والنفسية وكل هذه العوامل لا يمكن تتبع آثارها في أي خطاب سياسي دون النظر إلى اللغة التي هي أساس هذا النشاط الإنساني المعقد.**

كما يعرف الخطاب السياسي بأنه «الخطاب الموجه عن قصد إلى متلقٍ مقصود، بقصد التأثير فيه وإقناعه بمضمون الخطاب، ويتضمن هذا المضمون أفكارًا سياسية أو يكون موضوع هذا الخطاب سياسيًّا وفي أغلب الأحيان يلجأ الخطاب السياسي إلى استثارة الرموز في عقول ونفوس المخاطبين كي يتمكن من تحقيق هدفه»[٤]. والخطاب السياسي خطاب غير مُرتجل، ولا يمكن تصوّر أو تخيّل أي خطاب سياسي دون إعداد مسبق يقوم على تضافر جهود شبكة من علماء اللغة والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرهم من الخبراء في التخصصات المختلفة.

> أساس الخطاب السياسي هو القصدية Intentionality؛ حيث يتعمد المنتج من خلال التشكيلات اللغوية إيصال مقاصده ونواياه عبر رسائل معينة إلى المتلقين معتمدًا على اللغة التي تكوّن الوعاء الذي يحمل أيديولوجيته وعقليته وثقافته، وحتى في بعض الأحيان نفسيته.

ويقترب التعريف السابق للخطاب السياسي من تعريف «بنفست» «Benvenist» للخطاب -بوجه عام- الذي عرَّفه بأنه «كل تلفظ يفترض متكلمًا ومستمعًا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»[٥].

وأساس الخطاب السياسي هنا هو القصدية Intentionality؛ حيث يتعمد المنتج من خلال التشكيلات اللغوية إيصال مقاصده ونواياه عبر رسائل معينة إلى المتلقين معتمدًا على اللغة التي تكوّن الوعاء الذي يحمل أيديولوجيته وعقليته وثقافته وحتى في بعض الأحيان نفسيته، والخطاب السياسي لذلك إنتاجية مقصودة من مرسل معين إلى متلقٍ معين، وإن كنت أرى أن متلقي الخطاب ليس متلقيًا مخصوصًا بل إن الخطاب ينفتح على عدد كبير من المتلقين، فالخطاب السياسي ينبغي أن يقدم إلى المتلقي بغض النظر عن خلفيته الثقافية والمعرفية. فهو يخاطب جمهور المتلقين -أيًّا كانت ثقافتهم- بهدف إيصال رسالة مخصوصة تأثيرية أو تحفيزية أو غير ذلك.

العناصر المكونة للخطاب السياسي

لا تختلف العناصر المكونة للخطاب السياسي عن تلك العناصر المكونة للخطاب بشكل عام، فلا بد من وجود {منتج - رسالة - وسيط / قناة اتصال - مُستقبل}، وإن كان المنتج هنا يختلف عن غيره من المنتجين فهو منتج مخصوص فهو إما قائد أو زعيم سياسي أو عضو حزبي، أو كاتب صحفي، والرسالة المعنية تهدف إلى التأثير في المتلقين والرسالة الموجهة من منتج الخطاب السياسي ينبغي أن تحقق أهداف السلطة ومقاصدها والمصالح العامة وتقديم معلومات رفيعة المستوى، غير معروفة لدى المتلقي ثم محاولة نقلها إلى الجمهور نقلًا مدعمًا بوسائل الإقناع والتأثير من أجل تحقيق مهمات وطنية (اجتماعية - اقتصادية - ثقافية)، وأن المقصد من الاتصال السياسي ذرائعي Pragmatic يقصد إلى تحقيق أهداف السلطة ومقاصدها[٦].

سلطة الخطاب اللغويّة

يمتلك الخطاب السياسي عناصر سلطوية تؤثر على المتلقين، فالسياسي يستخدم خطابًا خاصًّا يمتلك قدرات تأثيرية وإقناعية، وهو الأمر الذي أثار خلافًا بين اللغويين، هل الخطاب يمتلك سلطة خاصة به أو أنه يوظف في يد السلطة وهذه النقطة تقودنا ناحية العلاقة بين اللغة وسلطة اللغة؛ نظرًا لكون الخطاب -أساسًا- منتجًا لغويًّا.

ويرى كثير من اللغويين أن اللغة تمثل قوة وسلطة في ذاتها دون الحاجة إلى استخدام عناصر خارجة عن إطار النظام اللغوي، بينما رأى بعضهم أن اللغة أداة أو وسيلة توظف في يد السلطة بوصفها وسيلة من وسائلها المختلفة في السيطرة على الآخرين. فاللغة «سلطة في ذاتها والسياسة هي السلطة بذاتها ولذاتها، ونجد أن السياسيين يمارسون اللغة، وهم على وعي بقوتها إذ تشد أزر سلطتهم، وبعضهم لا يعي أن وزن سلطانه بوزن سلطة اللغة، فالسياسة هي السلطة الحاضرة، واللغة هي السلطة الغائبة»[٧].

وقد انحاز «نيتشه» F. Nietzsche لوجهة النظر القائلة إن اللغة عنصر من عناصر السلطة، فرأى «أن اللغة فعل من أفعال السلطة»[٨].أي إنها لا تمتلك قدرة سلطوية على المتلقين بمفردها، ولكنها أداة في يد المتحكم في الجمهور فتحركهم كيفما شاءت حسب اليد المتحكمة فيها، إذ يتخذها كل تيار سياسي وسيلة من وسائله فيوظفها في خطابه السلطوي وبأدوات مختلفة ووسائط متعددة. إلا أن R. Barthes رأى أن اللغة سلطة في حد ذاتها وهو ما يعني قدرة اللغة على التأثير في المتلقين دون أن تكون في يد سلطة معينة[٩].

الخطاب السياسي وتشكيل قناعات المتلقين

يمكن لمنتج الخطاب السياسي تشكيل قناعات المتلقين وتوجيههم الوجهة التي يرغب فيها من خلال استخدام مجموعة من الآليات اللغوية أو لنقل الأدوات اللغوية، فاللغة تمتلك القدرة على التلاعب أو الاستغلال -بشكل عام- إلا أن هذه الخاصية تتضح بشكل بارز عند استغلالها في الجانب السياسي؛ لأنها توظف مجموعة الوسائط المختلفة أهمها اللغة، وقد أصاب نصر بن سيار عندما قال (وإن الحرب أولها الكلام).

وتفرض السلطة سيطرتها على المتلقي من خلال إنتاج خطاب سياسي لغوي يعمد فيه السياسي/المنتج إلى توظيف عناصر لغويّة هي أساس تشكيل قناعة المتلقي والمؤثرة في قبوله لمحتوى الخطاب ومن بين العناصر اللغوية التي تؤدي إلى إقناع المتلقين:[١٠]

- **التلاعب اللغوي Linguistic Manipulation** والمقصود به استغلال اللغة للتأثير في الآخرين عبر استخدام الإحالات والتضمينات والأفعال والصفات، واستخدام أو إنتاج عبارات يمكن من خلالها التلاعب بأفكار الجمهور أو المتلقين، ويستغل منتجو الخطاب السياسي هذا الجانب اللغوي في تقديم أفكارهم من خلاله، فالخطاب السياسي ليس عفويًّا فهو خطاب مخادع ومراوغ مما يسمح بتأويل ما فيه من صدق أو كذب حسب ما يقدمه منتجه. ويندرج تحت هذا العنصر كذلك ما يسمى اللعب بالألفاظ Wordplay ومن خلاله يمكن نشر المعلومات Information Dissemination وفقًا للقدر المطلوب إيصاله للمتلقي إما بطريقة مباشرة أو ضمنية. كما يتم من خلال التلاعب اللغوي ترتيب الأولويات Setting Agenda أي قدرة المنتج/السياسي/السلطة على تحديد الاهتمام الشعبي بالقضايا والتأثير فيما يفكر فيه الناس، فتكون إشادة زعيم بعمل ما أو قضية ما مثيرة لحماسة شعبه وتجعلهم يلتفون حوله ويمدحونه.

- **استخدام الرموز الإشارية/ الإحالية Referential Symbols** وتعني استخدام الرموز والعلامات الإشارية عند الحديث أو الكتابة مع الاهتمام بالجوانب الثقافية لكل من المنتج/المرسل والمتلقي.

> **يرى كثير من اللغويين أن اللغة تمثل قوة وسلطة في ذاتها دون الحاجة إلى استخدام عناصر خارجة عن إطار النظام اللغوي، بينما رأى بعضهم أن اللغة أداة أو وسيلة توظف في يد السلطة بوصفها وسيلة من وسائلها المختلفة في السيطرة على الآخرين.**

- **استخدام الرموز الأداتية Instrumental Symbols** وفيها يستخدم المنتج المعاني الواردة في القاموس، ويوظفها في لغته بجانب ما تشير إليه من معانٍ توضيحية.

- **المعاني التضمينية والبعد المجازي Figurative Dimension - Connotational Meanings Cognitive** وفيها توظف العناصر المجازية المختلفة كالاستعارة والتشبيه والمجاز بوصفها عناصر أساسية في جذب المخاطبين. فاستخدام الاستعارات والتشبيهات خاصية رئيسة في لغة السياسة بعامة ولغة الخطاب السياسي بخاصة، وتحدد (كريستينا شتوك) مجموعة من العناصر الخاصة بالخطاب السياسي العربي خاصة البلاغة السياسية العربية وترى أنها «لا تفضل التعبير المباشر، بل الرموز والأمثلة والحكم والمقارنات بالتاريخ الإسلامي أو المقارنات بدول أخرى، فتستعين لذلك بالتشبيه والتمثيل والاستعارات وغيرها من الوسائل اللغوية»[١١]، كما يركز الخطاب السياسي على الاستعارات بأنواعها كافة، وظهر نوع خاص منها يسمى «الاستعارات المهملة»، وهي تلك المعتمدة على عناصر تقليدية ذات معانٍ جديدة.[١٢]

- **التورية Paronomasia** وهي نمط آخر من أنماط الإقناع، فالخطاب السياسي حمّال أوجه فيعتمد منتج الخطاب على استعمال اللغة في جانبيها المباشر والخفي وهذه الخاصية تقترب إلى حد بعيد من الجانب التلاعبي للغة، فالخطاب السياسي يعتمد كثيرًا على ثقافة المنتج ودهائه فيمتلك القدرة على التلاعب بالأفكار والسياسات والأيدولوجيات فيعتمد على هذا الجانب في إنتاج الخطاب.

- **التناص Intertextuality** والمقصود به دراسة علاقة النصوص بعضها ببعض، فمنتج الخطاب السياسي يوظف التناص في خطابه مستغلًا

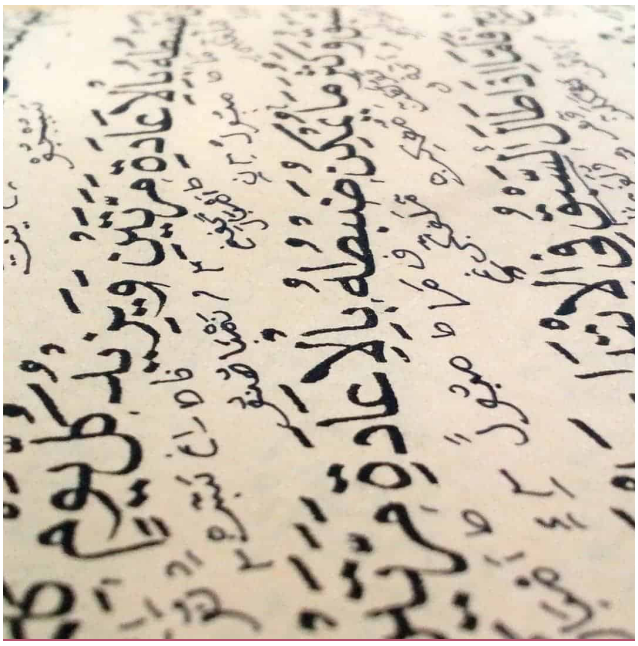

النصوص الدينية والشعرية والسياسية، كما يقوم من خلال التناص بالتفسير والربط Linking & Interpretation، فيربط الأحداث الحالية بما حدث من قبل أو يفسر أي حدث أو موقف سياسي أو اقتصادي باستحضار موقف مماثل أو مشابه حتى يقبل المتلقي الموقف الحالي، وقد يذكرها على هيئة إعلانات أو عناوين ليبرر ما سيفعل أو ما فعله بالفعل، كما يقوم بتلوين الكلام بلون ديني ويذكر المقدسات ويُمجد المواقف المشهورة في تاريخ الأمم ويقتنص العبارة التي يمكن ثباتها في الأذهان وقد يستعمل الكلمات القديمة الغامضة المعنى، والكلمات ذات الرنين والطنين لتسويغ أفعاله أو مبادراته السياسية والاقتصادية.

- **تصور المستقبل والماضي Past & Projection To Future** يستخدمه السياسي بلغة باهرة ليستعيد فيه زهوه وأمجاده، وعقد مقارنة بين ما كان عليه الوضع وما آلت إليه الأوضاع أو ما ستكون عليه، فهو يعتمد على إثارة المشاعر واستشراف المستقبل الجديد وكثيرًا ما يستخدم هذا الخطاب في برامج الانتخابات.

- **الحث على العمل Action Stimulation** ويعمد منتج الخطاب إلى استخدام العناصر التأثيرية فيلجأ إلى استخدام الأفعال ذات الأبعاد الحركية كما يستميل المتلقي عبر إرسال الرسائل المقنعة بالمناشدة وبعض الكلمات التي تحرك الإنسان أيًّا كان هذا العمل إيجابيًّا أم سلبيًّا.

- **المزج بين السخرية والاستنكار** واستخدام الكلمات ذات الدلالات الهامشية والفوقية.

- **البعد البراجماتي Pragmatic Dimension** وفيه توظف اللغة بوصفها ذات بعدٍ تداولي/ براجماتي، ويلجأ المنتج إلى توظيف التلميح والإيحاء Allusion / Insinuation والافتراض المسبق presupposition والتضمين Implicatures.

- **التلوين الصوتي:** وهو أحد أكثر العوامل تأثيرًا في المتلقي، فرفع صوت منتج الخطاب أو خفضه في أجزاء معينة يكون بشكل مقصود، كما أن التركيز على كلمات بعينها وقت إلقاء الخطاب يؤثر بشكل كبير في توصيل المعاني المطلوبة.

وختامًا، فإن للخطاب سلطة مادية، تنطوي على وسائل القوة وتعبر عن كل من الذات والمؤسسة وتؤسس لوجودها المستقل في آن واحد، واستنادًا إلى هذه الفاعلية السلطوية فقد أخذت التوجهات السياسية المختلفة في ممارستها الاعتماد على وسائل متنوعة للتأثير في المتلقين، واللغة كما سبق وذكرنا هي العنصر الأكثر فعالية وتأثيرًا في إنتاجية الخطاب السياسي والتأثير على المتلقين وتشكيل قناعاتهم وتوجهاتهم.

الهوامش والمراجع

(١) فضل (د. صلاح)، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٦٤، ١٩٩٢، ص ١٨.

(2) A) Chilton, Paul, & Schaffner, Christina, Discourse & Politics, In Teun A. Van Dijk (ed.). Discourse Studies: A Multidisciplinary Introduction, Vol.2: Discourse as Social Interaction, Sage Publication, London, UK. 1997, p.207. B) Chilton, Paul, & Schaffner, Christina Politics AS Text & Talk: Analytic Approaches to Political Discourse, Benjamins, 2002, p. 14 (C) Schaffner, Christina, Political Discourse Analysis from The Point of View of Translation Studies, Journal of Language & Politics, 3:1 (2004), Benjamins Publishing, p. 117.

(3) Political Discourse, Seidle , p. 44

(٤) يُنظر تفصيل ذلك في: غولد شليغر (ألن)، ت. كمال (مصطفى) نحو سيمياء الخطاب السلطوي، بيت الحكمة، عدد (٥)، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ١٣٤.

- أوكان (عمر)، مدخل لدراسة النص والسلطة، إفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩١، ص ١٥.

- الوعر (د. مازن)، اللسانيات وتحليل الخطاب السياسي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، عدد (٤٤)، ١٩٩٧، ص ١٣٥.

(٥) يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب (الروائي، الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٩.

(6) Fowler, Roger, Language In The News: Discourse & Ideologies In The Press, Routledge, 1998, P. 67.

- El-zoka, Critical Discourse Analysis, P.49.

(٧) المسدي (د. عبد السلام) - السياسة وسلطة اللغة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ص ٧.

(8) www.sfisat.com

(٩) مجلة الحوار المتمدن، ١٩-١٢-٢٠٠٨، عدد ٢٥٠.

(١٠) عيسى (د.رانيا فوزي)، تحليل لغة الخطاب السياسي في صحف المعارضة المصرية -جريدة الدستور نموذجًا، مجلة كليّة الآداب - بنها.

(١١) انظر تفصيل ما يسمى بالبلاغة السياسية العربية في:

(أ) شتوك (كريستينا)، اللغة كوسيلة للسلطة (استراتيجيات البلاغة العربية السياسية في القرن العشرين)، رايشرت، فيرابادن، ألمانيا، ط. ١، ١٩٩٩.

(ب) عبد اللطيف (د. عماد)، البلاغة السياسية (مختارات من خطب السادات)، مخطوط رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨.

(١٢) شتوك اللغة كوسيلة للسلطة، ص ٥٧.